المحاضرة السادسة

كتاب الخصائص لابن جنّي

التعريف بابن جني :

هو عثمان بن جني، ولد بين 322هـ و321هـ بالموصل بالعراق، ونشأ وتلقّى العلوم بها، فأخذ النحو عن أحمد بن محمد الموصلي الشافعي المعروف بالأخفش. والأدب عن أبي علي الفارسي الّذي كان من أكثر من تعلّق بهم ابن جني وصاحبهم.

وقد نهج ابن جني- كشيخه أبي علي الفارسي- نهجا بصريا. فهو يجري في كتبه ومباحثه على أصول هذا المذهب، وهو ينافح عنه ويذبّ، ولا يألو في ذلك جهدا.

بلغ ابن جني في علوم اللغة العربية من الجلالة ما لم يبلغه الا القليل، وقد أصبح في مجرى القرون مضرب المثل في معرفة النحو، ويبدو فضله في كتبه ومباحثه، وهو يعدّ بحق فيلسوف العربية، حيث يبدو على مباحثه الاستقصاء والتعمق في التحليل، واستنباط المبادئ والاصول من الجزئيات

تعرّف ابن جنّي على المتنبّي الّذي كان ذا قدم مكينة وبصر نافذ وإحاطة بالعربية، فنشأة بينهما ودّ كبير، وكان المتنبّي يجلّ ابن جنّي، ويقول فيه: هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس، وكان اذا سئل عن شيء من دقائق النحو والتصريف في شعره يقول: "سلوا صاحبنا ابا الفتح". وابن جني هو أول من شرح ديوان المتنبي، وقد شرحه شرحين، الشرح الكبير والشرح الصغير، وقد تعقّب معاصروه ومن جاء بعدهم شرحه.

وقد مات ابن جنّي في بغداد عام 392هـ مخلّفا كتبا حسانا تدلّ على فضله الجمّ وعلمه الغزير. ومن هذه الكتب: الخصائص، المهذب، التنبيه في الفقه (فقه الشافعية)، اللمع والتبصرة في أصول الفقه، التمام، سر الصناعة، اللمع في العربية

كتاب الخصائص:

أولا: الدافع لوضع الكتاب:

صنف ابن جنّي كتابه الخصائص ليقدمه إلى بهاء الدولة الذي تولى الملك في بغداد مع الخضوع للخليفة العباسي سنة 379 إلى سنة 403. يقول في ديباجة الكتاب: "هذا أطال الله بقاء مولانا الملك السيد المنصور المؤيد بهاءِ الدولة وضياء الملّة، وأدام ملكه ونصره، وسلطانه ومجده، وتأييده وسموّه، وكبت شانئه وعدوّه، كتاب لم أزل على فارِط الحال وتقادم الوقت، ملاحظاً له، عاكف الفكر عليه، منجذب الرأي والرويّة إليه"[1].

وقد كشف ابن جنّي أن الهدف من كتابه ليس البحث في المشكلات اللغوية الجزئية، بل الكلية منها، أي في فلسفتها، حيث يقول: "إذ ليس غرضنا فيه الرفع والنصب والجرّ والجزم؛ لأنّ هذا أمر فُرغ منه في أكثر الكتب المصنَّفة فيه. وإنّما هذا الكتاب مبنيّ على إثارة معادن

[1] - الخصائص، ج 01، ص 01.

المعاني، وتقرير حال الأوضاع والمبادئ، وكيف سرت أحكامها في الأحناء والحواشي"[2]. ويقول في موضع آخر: "واعلم فيما بعد أنّني على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع... وذلك أنني إذا تأمّلت حال هذه اللّغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقّة والإرهاف والرقّة ما يملك عليّ جانب الفكر، حتّى يكاد يطمح به أمام غِلْوَةِ السحر"[3].

ثانيا: قيمة الكتاب العلمية:

كتاب الخصائص هو أعظم مصنفات ابن جنّي نفعا، وأكثرها شهرة، فمن يقرأ هذا الكتاب يجد أنه أمام صرح من صروح اللغة العربية لما يحويه من آراء ثاقبة، ومعلومات قيمة في اللغة، والنحو والتصريف، والأصوات، والدلالات، وفيها يستقصي صاحبه مباحثه ينقل عن العلماء السابقين عليه كالخليل وسيبويه وأبي على الفارسي وغيرهم من العلماء، كما يستشهد بالشعر والقصص، ويجول في فنون المعرفة، ويستطرد لما هو بسبيله، وهو ينقل فوق ذلك بعض الشيء من الجاحظ في استطراده وتنويعه وخروجه من باب إلى باب ومن فن إلى فن.

ثالثا: أهم القضايا الواردة في الكتاب:

يقع الكتاب في 03 مجلدات تضم 162 بابًا، وهو في مجمله في قضايا اللغة العربية ومشكلاتها، بدأها بباب القول على الفصل بين الكلام والقول، وانتهى إلى باب في المستحيل وصحة قياس الفروع على فساد الأصول. ويمكن تلخيص أهم القضايا الواردة في الكتاب فيما يلي:

أ- البحث الصوتي:

يعدّ ابن جنّي، من خلال كتاب الخصائص، أوّل من حدّ اللغة بأنّها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم. وإليه يرجع الفضل في وضع علم الأصوات، حيث أطلق عليه هذا اللفظ الواضح الصريح قبل الغربيين بقرون، ودلّ به على دراسة الأصوات والبحث في مشكلاتها المختلفة على نحو مشابه للدرس الصوتي الحديث، فها هو يقول: "هذا القبيل من هذا العلم- أعني علم الأصوات والحروف- له تعلق ومشاركة للموسيقا لما فيه من صنعة الأصوات والنغم"[4]. وقد جمع ابن جني في كتابه الدراسات الصوتية السابقة التي نشأت ضئيلة عند الخليل وسيبويه ثم تتابع عليها المعنيون بها من بعدهما، حتى وصلت على يده إلى القدر الذي يحويه هذا الكتاب، حيث وسّع مجال القول فيها، وقوى تأثيرها في فروع الثقافة الأخرى.

ب- في البحث النحوي:

يعدّ ابن جنّي من الأوائل الّذين سعوا إلى بناء علم النحو من خلال محاولته تحديد مفهوم له، حيث عرّفه بأنه انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية، والجمع والتحقير، والتكسير، والإضافة، والنسب، والتركيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذّ بعضهم عنها رد به إليها"[5].

---

[2] - نفسه، ج01، ص33.
[3] - نفسه، ج 01، ص47.
[4] - سر صناعة الاعراب، ج01، ص10
[5] - الخصائص، ج 01، ص 78.

ج- في البحث الدلالي:

قد يكون البحث الدلالي في كتاب الخصائص هو أوسع البحوث في كتب اللغة حتّى ق 04، حيث يعالج جوانب صارت تُشكّل عناصر مهمة في معرفة "المعنى" عند القدماء مثل: الاشتقاق الأصغر والأكبر، والحقيقة والمجاز، وتصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، وغير ذلك..

د- في فقه اللغة

في باب فقه اللغة يعدّ كتاب الخصائص أوّل من تطرّق إلى قضية نشأة اللغة حيث أتى على ذلك في باب سمّاه (باب القول في أصل اللغة إلهام هي أم اصطلاح)، وآخر في اختلاف اللغات، وفي تداخلها، كما تحّدث في أبواب أخرى عن قضايا أصبحت موضوعات لفقه اللغة مثل القياس، الاحتجاج، وعن أغلاط العرب.

رابعا: تحقيق الكتاب وطبعه:

طبع جزء من كتاب الخصائص لأوّل مرّة في مصر سنة (1331هـ/ 1913م)، ثم طبع كاملاً بتحقيق الأستاذ محمّد على النجار في ثلاثة أجزاء ما بين (1952 و1955م)، مع مقدمة جليلة، وضّح فيها أثر الكتاب في أعمال النحويين من بعده.